

جدلية تقنين منظومة تشريعية دولية للحرب

في ضوء الثرات المسيحي الوسيط

ومن خلال "الحروب العادلة" لـ "مايكل والزر"

ملخص

أ. بوناب كمال

جامعة عنابة

Résumé

Les différents conflits sanglants ont eu un impact sur les références juridiques et valeurs internationales. Depuis, a commencé une prise de conscience sur la nécessité d'une revue (audit) de l'organisation juridique devenue impuissante pour endiguer les nouveaux défis. Un raisonnement de justification de la situation actuelle d'étendre les limites de validité du code international pour que la légalité mondiale soit conforme et capable d'avoir une adaptation facile avec les conflits, sauf qu'une telle approche se situe dans un retour et avec force aux littératures du Moyen Age et des concepts moraux du Christianisme et leurs considérations comme une référence de valeurs

تركزت النزاعات الدامية أثرها على المرجعية التشريعية والقيمية للنظام الدولي، ومن ثم بدأ الوعي بضرورة مراجعة المنظومة القانونية الدولية التي بدت عاجزة عن احتواء التحديات الجديدة. إذ قد تكون هناك مسوغات تبرر الحاجة إلى توسيع دائرة صلاحية القانون الدولي لتكون الشرعية الدولية وفق ذلك قادرة على التكيف السلس مع الصراعات، بيد أن المفارقة تكمن في العودة، وبقوة، إلى أدبيات العصر الوسيط والمفاهيم الأخلاقية المسيحية واعتبارها مرجعية قيمية تسمو على السيادة وعلى الخصوصيات الحضارية والثقافية للشعوب والأمم.

فمنذ صدور كتاب الفيلسوف "مايكل والزر" سنة 1977 بعنوان "الحروب العادلة والحروب غير العادلة" سعت دوائر فكرية وسياسية (أمريكية بالخصوص) إلى نشر خلفية منهجية ومنظور فكري يتعامل مع مقاربة "حق التدخل الإنساني" وفق السجل اللاهوتي الوسيط، تُبنى وفقها أطروحة جديدة للعلاقات الدولية وعلى أسس ليبرالية محضة.

supérieures à la souveraineté et les spécificités civilisationnelles et culturelles des peuples et des nations.

Depuis l'apparition du livre du philosophe Michael Walzer en 1977 avec comme titre « Just and unjust wars », des cercles littéraires et politiques surtout Américains se sont ligüés par la publication d'un fond méthodologique et une perspective intellectuelle ayant comme approche « le droit d'intervention humanitaire » en conformité avec un agenda théologique se référant au moyen âge. Ainsi sera érigée une nouvelle thèse régissant les

relations internationales sur des bases purement libérales.

مقدمة

في 17 جوان من سنة 2000 كان مايكل والزر مزينا بشهادة الدكتوراه الفخرية من جامعة بلغراد، الاحتفالية وقعت ليس ببعيد عن ما تبقى من المباني التي دمرها حلف شمال الأطلسي في قلب المدينة، وهو ما دفع ألكسندر جوكيتش إلى التساؤل عما يمكن أن يغري الناس، ولا سيما النخب الفكرية، لتكريم من دافع عن العدوان على بلدهم⁽¹⁾. لطالما كانت نظرية الحرب العادلة غير مرحب بها في الأوساط القانونية والدبلوماسية الدولية، فبتعبير جوزيف كونز Josef Kunz أن هذا المفهوم لاهوتي أكثر منه قانوني a theological not a legal concept، وفي ما يدل على تراجع قيمة هذا المفهوم لم يُشر فون مارتنس George Friedrich Von Martens إلى الحرب العادلة في كتابه الشهير Précis du droit des gens modernes de l'Europe سنة 1789، رغم أنه تدارك ذلك في وقت لاحق حين أقر أن مذهب الحرب العادلة لم تتبق منه إلا روحانية ضحلة لا معنى لها⁽²⁾، غير أن جهود والزر قوضت نسبيا مكاسب القرن التاسع عشر التي انتقلت فيها مفاهيم الحرب العادلة إلى المجال العلماني، لتعود مجددا من بوابتي المجال الأخلاقي والنظام المعياري. وبناء عليه يحاول هذا المقال الإجابة على الإشكالية التالية: ما هي أهم المراحل التي مر بها مفهوم الحرب العادلة؟ وكيف ساهمت كتابات الفيلسوف مايكل والزر في إعادة إحيائه من جديد؟

أولا- الحرب العادلة في العصر الوسيط: جدال اللاهوت والقانون الطبيعي

1. Aleksander Jokic : « what's a just war theorists ? ». Journal of theological and philosophical criminology. Vol 4 (2), July 2012, p 91.
2. Robert Emmet Meagher : « Killing from the inside out : Moral injury and just war ». Cascade books, U.S.A., 2014, p 127.

ظهر مذهب الحرب العادلة في سياق اللاهوت الكاثوليكي وتكونت في الأساس من عنصريين:⁽¹⁾

Jus ad bellum : قانون "حق شن الحرب"، Jus in bello : القانون "من خلال الحرب".

ترجع العقيدة اللاهوتية لمذهب الحرب العادلة إلى القديس أغسطين Saint Augustine الذي أعطى صياغته الأولى في مؤلف Contra Faustum، وهنا طرح أغسطين سؤالاً محرجاً « Is it necessarily sinful for a Christian to wage war? » هل من الضرورة أن يكون المسيحي آنما إذا شن حرباً؟ فعلى الرغم من أن أغسطين دعا تكررًا إلى إلغاء الحرب في كتابه "مدينة الله" فإنه سمح أيضًا باستثناءات ظهرت أهميتها في أن الكنيسة وافقت عليها فيما بعد، فقد ذكر القديس أغسطين في الكتاب السادس: "بما أن الأسوأ هو أن يحكم الأشرار العادلون من أن يخضع العادلون للأشرار، إذن، حرب العادلين ضد الأشرار لن تكون مجرد شر لا بد منه، لكنها تدعى وبحق، حادثاً سعيداً"، وفي الكتاب التاسع عشر أضاف قائلاً: "بالرغم من أن الرجل الحكيم دائماً يرفض أن يضطر إلى الخوض في حروب عادلة، فإن هناك مناسبات يضطره ظلم الطرف المضاد إلى إدراك ضرورة خوض حروب عادلة"⁽²⁾. الاستثناءات، حسب أغسطين، تشمل الحروب التي تستهدف وقف الظلم والانتقام وردع أعداء الكنيسة، إنها الحروب العادلة التي تشن انتقاماً من أضرار تسببت بها دول أو إمارات أهملت وتغاضت عن معاقبة الأشرار من رعاياها على الآثام التي اقترفوها، أو أنها أبت أن ترد ما استولت عليه من ممتلكات غيرها دون وجه حق⁽³⁾.

1. Alain Caillé : « Peace and Democracy : Benchmarking ». Introduction by Boutros Boutros Ghali. UNESCO, U.S.A., 2004, p 47.

2. كوينتن سكر: "أسس الفكر السياسي الحديث: عصر النهضة"، ج1، ترجمة: حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2012، ص 439.

3. تونسبي بن عامر: "قانون المجتمع الدولي المعاصر"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992، ص32.

تمتنت أدبيات الحرب العادلة مع اللاهوتي الكاثوليكي توما الإكويني Thomas D'Aquin (1225-1274) ففي موسوعته الأشهر "سوما ثيولوجيكا" Summa Theologica وبعد أن اعتبر أن علم اللاهوت بمثابة "العقيدة المقدسة" وأنه علم جامع يتكلم عن كل الأمور من وجهة نظر الله، اشترط توما الإكويني ثلاث مقومات لشن الحرب العادلة: (أ) أمير شرعي يأذن بالحرب (ب) أن تكون الحرب بنية سليمة، مقصدها تعزيز كل ما هو جيد ودحر كل ما هو سيء (ج) قضية عادلة ضد عدو، بعد الشعور بأنه من الذنب عدم الرد عليه⁽¹⁾.

وأساسا وتحت قوة استنكار الكنيسة للحرب، على أساس أنها لعنة (anathema)، لم يكن هناك متسع من المجال للحديث عن حروب من نوع خاص، شأنها في ذلك شأن العدوان أو التوغل العشوائي، فالكتاب المقدس يأمر أتباعه بأن "يصنعوا من سيوفهم أسنة محارث"⁽²⁾، إلا أن الصيغة الطوماسية The Thomist formula اشترطت أن عدالة الحرب ترتبط بأن تكون مفتوحة وعلنية to be « just » it had to be « Public »⁽³⁾.

قبل الحربين العالميتين في القرن العشرين، كانت حرب الثلاثين عاما (1618-1648) الصراع الأكثر تدميرا في أوروبا، وفي خضم اللاتوافق المير بين الكاثوليك والبروتستانت وُلدت المساهمة العقائدية لنظرية الحرب العادلة من تلقاء نفسها، إنه ومن أجل قضية الدين كانت هذه النظرية مطية لتجاوز كل ما يتصل بقواعد الحرب Jus in bello، لقد أسهمت الأفكار اللاهوتية في توصيف الأمير على أنه وكيل الله agent of God يعاقب المهزوم مثل ما يعاقب الله الشياطين في الجحيم، وقد كان لحرب الثلاثين عاما امتدادات وعواقب خارج أوروبا، حيث نشب القتال في مناطق من إفريقيا وآسيا، وحدث تدمير لمعبد كونيسوارام ترينكومالي Koneswaram Trincomalee ومعبد كيثيسوارام Ketheswaram، إضافة لحملة تدمير واسعة لخمسمائة من المزارات

1. Aleksander Jokic : « what's a just war theorists ? », Op. Cit, p 92.

2. Richard Ned Lebow: « Why nations fight: Past and future motives for war », Cambridge university press, U.K., 2010. p.15.

3. Aleksander Jokic : « what's a just war theorists ? ». Op. Cit, p 92.

والمكتبات الهندوسية والبوذية، والتحول القسري للبوذيين والهندوس إلى الكشككة^(*). لاحظ منوشهر غانجي Manouchehr Ganji أن الجانب الأكبر من تاريخ التدخل الإنساني مرتبط بقضية التدخل لصالح أقليات الاضطهاد الديني، لذلك ليس من المستغرب أن تولد هذه الممارسة من رحم الفلسفة اللاهوتية الأوروبية⁽¹⁾، إلا أن هذا لا يعني أن الفلسفة اليونانية والرومانية القديمة قد أغفلت الحديث عن هذا المفهوم، فقد كان شيشرون Cicéron في خطابه الجماهيرية الشهيرة يستغل الآراء ويطوعها عن طريق إدخال الضمير، وفي خطابه الذي يحمل عنوان "دفاعا عن ميلو" يقول شيشرون إن الضمير هو المسرح الرئيسي للفضيلة، وأن موكله "ميلو" قد سلم نفسه باختياره لأن قوة الضمير دعت له لذلك، مثلما كانت تطارده عندما كان مذنبا⁽²⁾.

في القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر أسهم كل من: ويليام أميس William Ames (1576-1633) لاهوتي بروتستانتي و ويليام فولباك William Fulbecke (1560-1616) محامي و ماثيو ساتكليف Matthew Sutcliffe (1550-1629) رجل دين وأكاديمي ومحامي) أسهم الثلاثة في تقديم ملحوظات هامة على ضرورة استبعاد الدين كأساس لعقيدة الحرب العادلة، وهي الرؤى التي سعى لتشمينها كل من الفقيهين فرانسيسكو دو فيكتوريا Francisco de Victoria و فرانسيسكو سواريز Francesco Suarez حين دعيا إلى ضرورة تقييد استخدام القوة العسكرية تجنباً للفوضى، ومن المهم، خاصة لسواريز، الامتناع عن شن الحرب ضد الشعوب المتخلفة بحجة تمدنهم، إلا أنه أشار إلى حق محدود من التدخل

*. لمزيد من المعلومات عن حرب الثلاثين عاما في أوروبا، راجع:

و Geoffrey Parker: « The thirty years' war ». Routledge, U.K, 2nd edition, 1997;
Peter H. Wilson, « The thirty years war : Europe's tragedy », Belknap Press, U.S.A., 2011.

1. Tonny Brems Knudsen: « The history of humanitarian intervention : the rule or the exceptions ». Paper for the 50th ISA annual convention, New YORK, February 15-18, 2009, p.4

2. بول ستروم: "الضمير: مقدمة قصيرة جدا"، ترجمة: سهى الشامي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط1، 2014، ص 13.

الإنساني، أين يتوجب التحرك إذا توفرت أرضية يذبح فيها الأبرياء أو تحدث فيها أخطاء مماثلة، وعلى الرغم من أن سواريز قيد حق شن الحرب، إلا أنه مازال من المقبول عنده أن يكون للحاكم المسيحي حق التدخل لاعتبارات دينية في ممالك أخرى، وهو الحق المماثل الذي لا يمكن الاحتجاج به من قبل الحاكم العثماني⁽¹⁾.

هذا وقد مثل اجتماع وتصويت الجمعية العمومية لكلية اللاهوت بجامعة سلامنكا (The university of Salamanca) نقطة مهمة في تاريخ تقليد الحرب العادلة في القرون الوسطى، حيث أعتبر الغزو الإسباني للأنكا والأزتيك في أمريكا الوسطى والجنوبية غير عادل، إنها حروب استيلاء، وتطلب الأمر في ذلك عبقرية دو فيكتوريا الذي اعترف بأن مبادئ الحرب العادلة ليست فقط قواعد النادي المسيحي المغلق، بل هي قواعد أخلاقية عالمية تستند إلى منطق ينطبق بالضرورة على أي شخص دون إيلاء اعتبار لظروف الوقت أو طبيعة هذا الشخص، إنه المنطق العالمي Universalizational logic الذي شجب بموجبه دو فيكتوريا أية إمكانية لتبرير التمييز التعسفي بين مواطني دولة ما وأولئك الموجودين في دولة أخرى، غير أن المنطلق الكوني لكتابات دو فيكتوريا لم يتخلص بشكل واضح من قاعدة الارتكاز إلى المستندات الدينية، فحض المسيحية على حب الجار يشمل كل مكان يتواجد فيه جار يحتاج إلى مساعدة، يقول دو فيكتوريا: "البربر كلهم حيراننا، ومن ثم فإنه يمكن لأي شخص، خاصة الأمراء، الدفاع عنهم ضد الطغيان والقمع، وحتى من دون تفويض البابا يتمتع الإسبان بحق البرابرة من ممارسة تقاليد أو شعائر شائنة"⁽²⁾.

وعلى نحو مقارب نشر البروتستانتي الإيطالي ألبيريكو جنتيلي Alberico Gentili (1552-1608) "ثلاثة كتب في قانون الحرب" De jure belli libri tres، أين اشترط إعلان الحرب بأهمية وجود "مشاعر إنسانية مشتركة" The common sentiments of humanity، وهذا إذا كان هناك تعد واضح من

1. Aleksander Jokic : « what's a just war theorists ? ». Op. Cit, p 93.

2. Brendan Simms and D.J.B. Trim : «Humanitarian intervention: a history ». Cambridge university press, U.S.A, 1st published, 2011, p.32.

طرف أحدهم على قوانين الطبيعة والبشرية⁽¹⁾.

أما الفقيه هيغو غروسيوس Hugo Grotius و جون لوك John Locke و إمبريك دو فاتل Emerich de Vattel فقد انصبت جهودهم على تنقية آخر الآثار المتبقية عن العصور الوسطية لمذهب الحرب العادلة، ليستند بذلك هذا المفهوم في العصر الحديث كلياً إلى القانون الطبيعي واتفاق الأشخاص فيما بينهم دون الرجوع إلى شرط الموافقة الإلهية. ففي عمله الأشهر "حول قانون الحرب والسلم" De jure belli ac pacis 1625، الذي يعتبر أول وثيقة أُلِيس فيها مفهوم التدخل الإنساني ثوباً قانونياً، واحتفل به الكثير نظراً لنكهته الحداثيّة، حيث يرد دوماً أن عمل غروسيوس لا يشير إلى حق الحاكم بمعاينة الآخرين إن انتهكوا قانون الطبيعة، ولكن، على نحو أدق، إلى واجب حماية ضحايا المعاملة اللاإنسانية، يقول غروسيوس "يتمتع الملوك، وأولئك الذين لديهم سلطة مماثلة، بحق المطالبة بالعقاب، ليس فقط رداً على الإهانات التي تلقوها هم أو رعاياهم، ولكن أيضاً تلك التي تنتهك بشكل صارخ قوانين الطبيعة أو الدول، وتمس حق أي شخص، أينما كان"⁽²⁾.

عايش غروسيوس فترة تفكك الكيان المسيحي القروسطي، حيث لم تعد ثمة أي هيكلية دينية . سياسية سائدة كما كان عليه حال العصور الوسطى، وبات هذا الوضع الناشئ يتطلب بديلاً لإقامة صرح من النظام والعدل في ما بين الحكومات، وعلى الرغم من استقلالية حكام مجتمع أوروبا الفوضوي إلا أنهم ظلوا خاضعين لقانون الطبيعة، وكانوا، مثل الآخرين، ملزمين بالانصياع له، ذلك هو لب عقيدة القانون الطبيعي لدى غروسيوس، غير أن هؤلاء الحكام كانوا في الوقت نفسه يضعون قوانين وضعية ويخضعون لها، وبالتالي فإن مجموع الأعراف والممارسات التي تعتمد عليها الدول في علاقاتها البينية هو العنصر المعياري الثاني في تصور غروسيوس للقانون الدولي، أو ما اصطلح عليه بـ "قانون

1. Tonny Brems Knudsen: «The history of humanitarian intervention : the rule or the exceptions », Op. Cit, pp. 5,6.

2. ديفيد فيشر: "الأخلاقيات والحرب: هل يمكن أن تكون الحرب عادلة في القرن الحادي والعشرين؟"، ترجمة: عماد عواد. عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2014، ص 323.

هيغو غروسيوس الوضعي للأمم" (1).

ثانيا- عرف عدم التدخل

في القرن الثامن عشر، وبعد أن تم التعارف على الصيغة الكلاسيكية لمفهوم التدخل الإنساني باعتباره مستوحى من مخاض صراع غير معلن بين نظريات الحرب العادلة وأفكار القانون الطبيعي، تم التوجه أكثر وأكثر نحو التأكيد على صيغة عدم التدخل Non. intervention والتي حددتها إسهامات كريستيان وولف Christian Wolff و إميريك دو فاتل، رغم أن هذا الأخير رأى أنه يحل لأي دولة أن تدعم انتفاضة في بلد آخر إن تعرض الأفراد للاستبداد والاضطهاد غير القابل للتحمل، أما سلفه كريستيان وولف فأشار إلى قبول التدخل الجماعي لدعم الحد الأدنى من معايير الإنسانية، وكجزء من التقدم العام للتيارات الوضعية والتعددية التقليدية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تطور مفهوم عدم التدخل مع هنري ويتون Henry Wheaton، روبرت فيليمور Robert Phillimore، جون ستيوارت ميل John Stuart Mill، مونتاغ برنارد Mountague Bernard، وليام فرنون هاركورت William Vernon Harcourt، وليام إدوارد هال William Edward Hall و لاسا أوبنهايم Lassa Oppenheim (2).

تربط الكثير من الدراسات تاريخ "عرف عدم التدخل" برسالة الوداع ل جورج واشنطن 1796 George Washington's farewell adress ورسالة جيمس مونرو James Monroe إلى الكونغرس الأمريكي 1823^(*)، ورغم ما لهما من الحديثين

1. روبرت جاكسون: "ميثاق العولمة: سلوك الإنسان في عالم عامر بالدول"، ترجمة: فاضل جتكر، العبيكان، الرياض، ط1، 2003، ص، ص 679، 680.

2. Tonny Brems Knudsen: « The history of humanitarian intervention: the rule or the exceptions ». Op. Cit, p.6.

*. ورد في رسالة واشنطن "لا تتدخلوا في الشؤون الأوروبية، وحاذروا من أن تنساقوا إلى نزاعاتها". وجاء في رسالة مونرو "إن الولايات المتحدة لا تسمح على الإطلاق بحصول أي تدخل من الدول الأوروبية في الشؤون الداخلية أو الخارجية للدول الأمريكية، كما أنه ليس للولايات المتحدة أن تتدخل في الشؤون الخاصة

البارزين من أهمية إلا أن الإسهام الأكبر في تطوير هذا التحول الناشئ يُعزى أساساً إلى المصادر الثقافية متنوعة المشارب، والتي اتفقت في مجملها على شجب إساءة استعمال مذهب التدخل الإنساني من طرف الدول القوية، ما عُدَّ دعوة ضمنية / تضامنية تعترف بحق الدول الضعيفة في أن تتخذ "عدم التدخل" كأساس للدفاع عن ممارساتها.

في عام 1910 أصدر أنطوان روجيه Antoine Rougier دراسة شاملة عن التدخل الإنساني خلص فيها إلى استحالة التفرقة بين التدخل والاعتبارات السياسية أو ضمان عدم وجود مصالح مطلقة للدول المتدخلة، وفي عام 1963 استنتج يان براونلي Ian Brownlie أن ممارسات الدول تبرر النتيجة القائلة بأنه لم تحدث هناك حالة تدخل إنساني واحدة، باستثناء حالة التدخل في سوريا عامي 1860 و 1861، بالإضافة أن أشهر مدرستين متنافستين في الدراسات القانونية في الغرب اتفقتا على دمج التدخل الإنساني بأنه فوضوي، وهما "الوضعية القانونية الدولية" International legal positivism ومدرسة نيوهاغن للفقه الموجه سياسياً New Haven school of policy oriented jurisprudence⁽¹⁾. ومن البديهي أن تكون المدارس القانونية في العالم الثالث عنيفة في استنكارها للتدخلات الإنسانية.

تعد المادة الثانية (الفقرتين الرابعة والسابعة) المكان الشرعي الراهن لعرف عدم التدخل في ميثاق الأمم المتحدة، وأساس المصلحة الوحيد لتجاوز هذه المادة موجود في الفصل السابع (المادة الواحدة وخمسون) أما المادتين التاسعة والثلاثون وأثنان وأربعون فهي مواد مفتاحية تُحوّل مجلس الأمن بأن يضع تعريفاً للعمل العدواني، تهديد السلم أو انتهاكه، وإذا ما تم ذلك يبادر المجلس وفق المادة التاسعة والثلاثون إلى التحرك سواء

بدول أوروبا".

1. فرانسيس بويل: "تدمير النظام العالمي: الإمبريالية الأمريكية في الشرق الأوسط قبل وبعد 11 سبتمبر"، ترجمة: سمير كريم، (القاهرة: المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2004)، ص 194، 195.

بريا، بحريا أو جويا (**).

بعد صدور ميثاق الأمم المتحدة جاء حكم محكمة العدل الدولية سنة 1949 في الخلاف البريطاني . الألباني حول تنظيف مضيق كورفو Corfu channel ليقدم نموذجا عمليا يمس بعمق عرف عدم التدخل، فرغم الأضرار الجسيمة التي أحدثتها الألغام بالسفينتين التابعتين للسلاح البحري الملكي، قضت المحكمة بإدانة المملكة المتحدة على أفعالها في المضيق، واعتبرت تنظيف المنطقة من جانب واحد دون ترخيص من حكومة ألبانيا يعتبر تدخلا في الشؤون الداخلية لدولة مستقلة وانتهاكا صارخا للسيادة الإقليمية، لتسقط بذلك كل الحجج التي ساقتها الحكومة البريطانية لتبرير أفعالها (التدخل، الحماية، الوقاية الذاتية، المساعدة) ⁽¹⁾.

إذن، عانى المدنيون (الذين لا يتمتعون بميزة حمل السلاح) من ممارسات فظيعة في حروب العصور الوسطى على يد العسكريين (الوحيدين المخولين بحمل السلاح)، لقد أثمرت هذه الممارسات أفكارا لا تخلو من القيمة ساهمت حديثا في تطوير القانون الدولي للحرب، أولا، برزت الحاجة الملحة إلى إرساء مجموعة قواعد تحكم سلوك الطبقة العسكرية أثناء الحروب بغض النظر عن الانتماء والولاء، وبشكل مستقل عن عدالة أو ظلم أو من بادر بالحرب. ثانيا، أكدت هذه الفترة أن الدول السيادية هي وحدها المخولة بشن الحرب، وبالتالي فإن إرث القرون الوسطى من الحرب العادلة، وعلى ما خلفته من ممارسات فظيعة، فإنها عادت بشيء من القيمة والعبرة للأجيال اللاحقة.

مع نشوء الدول الإقليمية الحديثة أصبح اللجوء إلى السلاح خاضعا لضوابط، وبقي مفتوحا ولكن بحكم الضرورة، وسرعان ما تم تنميط كل شكل من أشكال القتال لا تشنه دولة سيادية على أنه حرب تتخذ شكلا غير صحيح. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبتأثير جملة من المثل الإنسانية العليا، صيغت أعراف وقوانين

** للاطلاع على محتوى المواد راجع ميثاق الأمم المتحدة على: "موقع الأمم المتحدة"، www.un.org/ar/

1. سامح عبد القوي السيد: "التدخل الدولي بين المنظور الإنساني والبيئي"، دار الجامعة الجديدة، الإسكندرية، 2012، ص ص 302، 311.

الحرب، وأخذت شكلها التقني في مؤتمرى السلام بلاهاي 1899-1907، لقد كان هذا إيذاناً باستثناء التعاليم الفلسفية لعصر الوضعية The era of positivism^(*) أين أضحت سيادة الدولة في أوج الأهمية، وبإمكان الدولة التعامل مع الحرب في إطار السياسة الوطنية دفاعاً عن حقها السيادي، مما يعني طرداً ظاهرياً لعقيدة الحرب العادلة على كل الأصعدة والاعتبارات.

ومع عهد عصبة الأمم وميثاقى باريس والأمم المتحدة، لم تعد مشروعية الحرب مقتصرة على الدفاع عن النفس بل امتدت لفرض السلام والأمن الجماعيين، وبالتالي استمرت آلياً حتمية شن الحرب Jus ad bellum، ولكن كان من الضرورة إعادة طرح السؤال القديم: هل قانون الحرب Jus in bello في مأزق لأنه يساوي بين المعتدي والمدافع عن النفس؟ يحاجج الكثير بأن شن الحرب العدوانية هي أسمى فعل جنائي دولي، وأن أولئك المشاركين في هذا الإجرام يجب أن يُستثنوا من قوانين الحماية في Jus in bello، ولكن على الوجه الثاني من العملة برز منظرون جدد، وفي مقدمتهم مايكل والزر، يدعون إلى استثناء "الرجال الأخيار" The good Guys من معايير ومتطلبات Jus in bello. إنه وبغض النظر عن الحجج الأخلاقية والدينية والسياسية فإن هذه دعوة صريحة، بحسب ألكسندر جوكيتش، للعودة إلى شروط ومآسي الحرب العادلة الكلاسيكية في القرون الوسطى. لقد دأبت نظرية القانون الدولي الإنساني وزميلاتها نظرية حقوق الإنسان على رفض التمييز بين المشاركين في الحرب سواء كانوا معتدين أو مدافعين، ولكن إحياء والزر لعقيدة من العصور الوسطى كان فيه

*. ولدت الوضعية من رحم تطلعات سانت سيمون Saint Simon و أوغست كومت Auguste Comte لتطهير العلم من الميتافيزيقيا، وجاءت لتمثل رغبة القرن التاسع عشر في جعل العلم الطبيعي النموذج الوحيد للمعرفة، حتى في قضايا التاريخ والثقافة الإنسانية. وفي مواجهة ذلك ظهرت تيارات متململة من هذه القيود أبرزها الكانطية الجديدة Neo Kantianism. أنظر: تيرنس بول و ريتشارد بيلامي: = "موسوعة كمبريدج للتاريخ، الفكر السياسي في القرن العشرين"، المجلد الثاني، ترجمة: مي السيد مقلد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2010، ص11.

مخاطر واضحة باحتمال إعادة الأسوأ⁽¹⁾.

ثالثا- مايكل والزر والعودة إلى العصر الوسيط

في خليج ويستمينستر Westminster بلندن توجد لوحة تذكارية بأسماء كل قادة الطائرات المقاتلة المطاردة الذين سقطوا في معارك الحرب العالمية الثانية، بينما لا توجد أي لوحة بأسماء قائدي الطائرات الهجومية (المقنبلة)، وقد يقعون على الدوام مجهولي الهوية، لأن الأوائل قاتلوا وفق قواعد الحرب ضد وحدات أخرى، بينما الآخرون طرح خوضهم للقتال قضية أخلاقية خطيرة، الواقع أنهم شاركوا بطريقة ما في إبادة المدنيين، هذه القنبلة التلقائية للمدنيين التي استهدفت نشر الرعب ليست بطريقة أخلاقية ولا عادلة للدخول في الحرب، ولكن هل يمكن اعتبارها كذلك إذا كانت المجموعة المقاتلة تواجه خطر الزوال المطلق؟ هنا تكمن عقدة المسألة: من بإمكانه أن يحكم، متى وبأي مقاييس تصبح الإمكانيات المستعملة في نزاع ما مقبولة أخلاقيا⁽²⁾؟ في حالة بعينها، وهي القنبلة الإنجليزية للمدن الألمانية أثناء الحرب العالمية الثانية، يعتقد مايكل والزر أنها حالة يمكن تبريرها أخلاقيا، ففي الوقت الذي كانت الجيوش النازية تحرز الانتصارات والتقدم في أراضي أوروبا كانت إنجلترا وحدها في المعركة، وحتى عام 1942 لم يكن لإنجلترا من حيلة أخرى، بوصفها أمة مُعتدى عليها وعلى حافة الموت، إلا هذه القنبلة العمياء، موقف يطلق عليه والزر تسمية "الطوارئ القصوى" Supreme emergency (عليك احترام العدالة إلا إذا كانت السماء على وشك

1. Xu Jin: « The evolution of international laws of war ». Chinese journal of international politics. Vol 2, 2008, pp 171,203.

2. جون كلود ريانو بوريلان: "هل هناك حروب عادلة؟ حول كتاب مايكل والزر: الحروب العادلة وغير العادلة"، في: جان فرانسوا دورتي: "فلسفات عصرنا: تياراتها، مذاهبها، أعلامها وقضاياها"، ترجمة: إبراهيم صحراوي، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط 1، 2009، ص 226.

السقوط⁽¹⁾.

يعتبر مايكل والزر ناقدا شرسا للواقعية، يرفض بشدة كل الفرضيات التي تتصل بقدسية وأخلاقية الحدود " إن الحدود الموجودة هي على الأرجح اعتبارية، رُسمت بطريقة رديئة، أو هي نتاج حروب قديمة، فمن وضعوا الخرائط اتصفوا، على العموم، بالجهل أو كانوا تحت تأثير الكحول وحتى الفساد"⁽²⁾، إنه لا يحصر تأسيس الدول في عامل سلمي يتمثل في تجنب الفوضى فقط، وإنما أيضا في رغبة إيجابية جماعية في التعايش المشترك استنادا إلى قيم أخلاقية وروابط اقتصادية، ثقافية واجتماعية، يقول والزر "ليست ثكنات الجيش فقط، كما روج دافيد هيوم David Hume، هي المصدر الأصلي لتنشئة المدن، ولكن أيضا المعابد، والمقابر، ومنشآت الري"⁽³⁾.

هذا وقد مثل كتاب "الحروب العادلة وغير العادلة" في جزء كبير منه انتقادا لحرب فيتنام، إلا أن والزر وسم مؤلفه بحجة أخلاقية تتضمن أمثلة تاريخية واضحة بدءا بمراجعة ما كتبه ثيوسيديديس حول الحوار الميلاي Melian dialogue، أين اعتبر والزر طريقة حديث جنرالات أثينا مع ميلوس Milos بالنادرة والشاذة في التاريخ العسكري جاءت بسبب التدهور العام في السلوك على امتداد العالم اليوناني، فالحرب في نظرية والزر مؤطرة قانونا تقتصر على الوحدات المقاتلة فقط، لذلك كان على الأثينيين أن يواجهوا مسؤولياتهم لما قرروا تهدم مدينة ميلوس وإبادة شعبها رغم أنها كانت محايدة وليست في حرب ضدهم، وهو نفس الالتزام المنوط بفرنسا في حرب الجزائر واليابان في الحرب العالمية الثانية⁽⁴⁾.

أما في كتابه الحديث "جدل حول الحرب" نحى والزر منحى مدافعا عن سياسات التدخل: "لم أقصد التخلي عن مبدأ عدم التدخل بل قصدت الاحتفاء

1. Michael Walzer: « Just and unjust wars : A moral argument with historical illustrations ». Allen lane, London, 1978, pp. 231, Chap 16 «Supreme emergency».

2. Ibid., p.578.

3. Michael Walzer: « Spheres of justice: A defence of pluralism and equality » Basil blackwell, Oxford, 1985, p. 65.

4. Michael Walzer: «Just and unjust wars: A moral argument with historical illustrations ». Op. Cit, p. 5.

باستثناءاته"، ويتابع: "أينما يكون من الممكن إنهاء عمل فاحش وقذر يلزم القيام بذلك، وإن لم نقم نحن (المفترض أننا أكثر شعب محترم في العالم) بذلك، فمن سيقوم به إذن؟"⁽¹⁾، وتبعاً لذلك فإن السياسيين دون الأشخاص العاديين يمكنهم وحدهم أن ينتهجوا مسألة "الأيدي القذرة" Dirty hands في سبيل تحقيق الصالح العام، ولتوضيح ذلك ضرب والزر مثل "القنبلة الموقوتة" ليكون في قلب الجدل الدائر حول الأخلاق والمصلحة، لقد تصور والزر قائداً سياسياً معارضاً للتعذيب تم انتخابه حديثاً، يقوم بأول زيارة له إلى مستعمرة وعدها بمنحها الاستقلال، إلا أنه وتحت حتمية حماية أرواح الأشخاص، يضطر إلى التصريح بتعذيب متمرّد على علم بأمكان القنابل المجهزة للانفجار، فعل ذلك رغم اقتناعه بأن التعذيب أمر خاطئ ومزور⁽²⁾.

على إثر انهيار الشيوعية والتشويه الذي لحق بسمعة الليبرالية والانتشار الواسع لعدم الثقة في مختلف الأيديولوجيات السياسية، باتت المساعدات الإنسانية هي البديل الأمثل والمقام الأول في اهتمامات العالم، والعمل الهادف إلى إنقاذ الأرواح والتخفيف من المعاناة حسب والزر لا يوسم بأنه زكاة وإحسان Charity and philanthropy فقط بل هو واجب Duty أيضاً، فمن بين كل النزعات التي ظهرت في الآونة الأخيرة تبقى الإنسانية Humanitarianism هي الأكثر أهمية⁽³⁾. Humanitarianism is probably the most important

بعد سرد سياق متناسق من الأمثلة التاريخية يخلص والزر إلى أن الحرب العادلة حرب محدودة تجري وفقاً لجملة من القواعد الموجهة قدر الإمكان إلى الحد من استعمال العنف والإكراه تجاه السكان العزل على أن تحتكم مجريات الحرب إلى ضرورة التفرقة بين المحاربين وغيرهم، وأن لا تتجاوز تكلفة الدمار الذي تحدثه الحرب المكاسب المتوقعة،

1. Michael Walzer: « Arguing about war ». Yale University Press, New Haven, London, 2004, p.81.

2. Michael Walzer: « Political action: The problem of dirty hands ». Philosophy and public affairs, Volume 2, Issue 2, Winter 1973, pp. 161, 181

3. Michael Walzer: « On humanitarianism: Is helping others charity, or duty, or both ? ». Foreign affairs, July / August 2011. Issue. Volume 90, p.69

إضافة إلى أن القضية العادلة والمقصد الواضح واستيفاء كافة الوسائل المتاحة لحل النزاع والهيئة الشرعية الكفيلة بإعلان الحرب والأمل في النجاح، كلها قواعد إقرارها بإحكام يحدد الحرب العادلة من عدمها.

عقب أحداث 11 سبتمبر أصدر مايكل والزر رفقة ستين أكاديميا أمريكيا بيانا بعنوان "ماذا نحارب: رسالة من أمريكا" What we're fighting for a letter from America، جسّد البيان آراء فسيفساء فكرية واسعة، على الأقل بالمعايير الأمريكية، بدءا من الليبراليين اليساريين المعتدلين وانتهاء بالمحافظين اليمينيين (وفي مقدمتهم فرانسيس فوكوياما و صامويل هنتنغتون).

أشار مطلع الرسالة إلى القيم الأساسية التي تمثل، وفقا للموقعين، أفضل ما في الولايات المتحدة، إنها القيم التي ذهبت إلى الحرب من أجلها:⁽¹⁾

"نحن نؤكد على خمس حقائق جوهرية تتصل بالناس كافة دون تمييز:

1. يولد البشر جميعا أحرارا ومتساوين في الكرامة والحقوق.
2. الموضوع الأساس للمجتمع هو الفرد البشري، والدور المشروع للحكومة يتمثل في حماية وتعزيز شروط الازدهار البشري.
3. للبشر رغبة طبيعية في السعي إلى الحقيقة المرتبطة بأغراض الحياة وغاياتها النهائية.

4. حرية الضمير والحرية الدينية من حقوق البشر التي لا يمكن المساس بها.
5. القتل باسم الرب مناقض للإيمان به، وخيانة عظمى لشمولية وعالمية الإيمان الديني.

نحن نحارب دفاعا عن أنفسنا وعن هذه المبادئ العالمية الشاملة".

تساءلت الرسالة في عنوان مستقل عما إذا كانت هذه الحرب عادلة " A Just War ؟ " وقد انتهى الموقعون إلى أنها كذلك، بما أنها تفي بالشرط القائل " أن الحروب

1. David Blankehorn and other signatories : « What we're fighting for a letter from America ». Institute for American values, U.S. A ,2002, pp. 1, 17.

العدوانية والحروب التي تستهدف زيادة الثروة أو القوة هي الحروب التي لا يمكن القبول بها".

حيث أن مثل هذه الأنماط التي ارتبطت بنظم الفكر الديني والفلسفي سعت إلى إبعاد/احتواء فورات العنف عبر التبشير بنظام القانون والأخلاق المرتكزان على المسلمات المنظمة للحقيقة المعطاة بوصفها منزلة ذات طبيعة ما وراثية، لذلك قد تغدو الذات المتعالية، بمتطلباتها الصارمة وبنشداها السلم الكوني، محل سخرية إستراتيجي الحرب العادلة⁽¹⁾.

الخاتمة

لسنوات عديدة كان الافتراض الكامن وراء توجهات معظم ممارسي المساعدات أنه يمكن التعامل بالطريقة نفسها مع جميع أوجه الأزمات الإنسانية، فلا فرق جوهرى بين مساعدة الناس زمن الحرب أو الاستجابة للكوارث الطبيعية والأوبئة، بل إن مخلفات الثانية تفوق في بعض الأحيان ما تكلفه الحروب من خسائر مادية وبشرية، فقد قتلت الأنفلونزا الإسبانية، على سبيل المثال، سنة 1918 ضعف ما قتلته الحرب العالمية الأولى، إلا أنه وبعد نهاية الحرب الباردة اتضح أن الأزمات الإنسانية التي تكون لأسباب سياسية تختلف في عمقها عن نظيرتها التي تكون بفعل عوامل الطبيعة، وخيار التدخل وفق هذا الطرح المستجد الذي يبدو معضلة حقيقية إذ أنه يكون متاحا إما للتركيز على الضحايا أو الجناة.

هذه التحولات الجديدة التي شهدتها المنظومة الدولية تستدعي بلورة رؤية سخية ومحبة للآخرين، رؤية يعاد على أساسها اكتشاف جاذبية الأخلاقيات في فن الحكم Statecraft التي تساهم في وضع حد لمعاناة الأبرياء، غير أن الرهان الجديد/ القديم على تراث العصر الوسيط من شأنه أن يترك نافذة القلق الفكري مفتوحة على الدوام.

1. محمد أركون، جوزيف مايبلا: "من منهاتن إلى بغداد: ما وراء الخير والشر". ترجمة: عقيل الشيخ حسين، دار الساقي، بيروت، ط1، 2008. ص 83.

قائمة المراجع

باللغة العربية

1. الكتب

- كوينتن سكر: "أسس الفكر السياسي الحديث: عصر النهضة". ج1، ترجمة: حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2012.
- محمد أركون، جوزيف مايلا: "من مناهاتن إلى بغداد: ما وراء الخير والشر". ترجمة: عقيل الشيخ حسين، دار الساقى، بيروت، ط1، 2008.
- جان فرانسوا دورتيي: "فلسفات عصرنا: تياراتها، مذاهبها، أعلامها وقضاياها". ترجمة: إبراهيم صحراوي، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط1، 2009.
- فرانسيس بويل: "تدمير النظام العالمي: الإمبريالية الأمريكية في الشرق الأوسط قبل وبعد 11 سبتمبر". ترجمة: سمير كريم، القاهرة: المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2004.
- روبرت جاكسون: "ميثاق العولمة: سلوك الإنسان في عالم عامر بالدول". ترجمة: فاضل جتكر، العبيكان، الرياض، ط1، 2003.
- ديفيد فيشر: "الأخلاقيات والحرب: هل يمكن أن تكون الحرب عادلة في القرن الحادي والعشرين؟". ترجمة: عماد عواد. عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2014.
- بول ستروم: "الضمير: مقدمة قصيرة جدا". ترجمة: سهى الشامي، مؤسسة هندواي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط1، 2014.
- تونسبي بن عامر: "قانون المجتمع الدولي المعاصر". ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992.
- سامح عبد القوي السيد: "التدخل الدولي بين المنظور الإنساني والبيئي". دار الجامعة الجديدة، الإسكندرية، 2012.

2. الموسوعات

- تيرنس بول و ريتشارد بيلامي: "موسوعة كمبريدج للتاريخ، الفكر السياسي في القرن العشرين". المجلد الثاني، ترجمة: مي السيد مقلد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2010.

3. مواقع الأنترنت

- موقع منظمة الأمم المتحدة " موقع الأمم المتحدة"، www.un.org/ar/
باللغة الإنجليزية

1. الكتب

- Michael Walzer : « Just and unjust wars : A moral argument with historical illustrations ». Allen lane, London, 1978.
- David Blankehorn and other signatories : « What we're fighting for a letter from America ». Institute for American values, U.S.A., 2002.
- Michael Walzer : « Arguing about war ».: Yale university press New haven, London, 2004.
- Michael Walzer : « Spheres of justice : A defence of pluralisme and equality » Basil blackwell, . Oxford , 1985.
- Brendan Simms and D.J.B Trim : « Humanitarian intervention : a history ». Cambridge university press, U.S.A , 1 st published, 2011.
- Geoffrey Parker : « The thirty years' war ». Routledge, U.K , 2nd edition, 1997
- Peter H. Wilson: « The thirty years war : Europe's tragedy ». Belknap press, U.S.A, 2011.
- Richard Ned Lebow : « Why nations fight : past and future motives for war ». Cambridge university press, U.K. 2010.
- Robert Emmet Meagher : « Killing from the inside out : Moral injury and just war ». Cascade books , U.S.A , 2014.
- Alain Caillé: «Peace and Democracy: Benchmarking». Introduction by Boutros Boutros Ghali. UNESCO, U.S.A, 2004

2. المقالات العلمية

- Aleksander Jokic : « what's a just war theorists ? ». Journal of theological and philosophical criminology. Vol 4 (2), July 2012.
- Michael Walzer : « On *humanitarianism* : Is helping others charity, or duty, or both ? ». Foreign affairs, July / August 2011. Issue. Volume 90.
- Xu Jin : « The evolution of *international* laws of war ». Chinese journal of international politics. Vol 2, 2008.
- Tonny Brems Knudsen : « The history of humanitarian intervention : the rule or the exceptions ». Paper for the 50th ISA annual convention, New York, February 15-18, 2009.